سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ

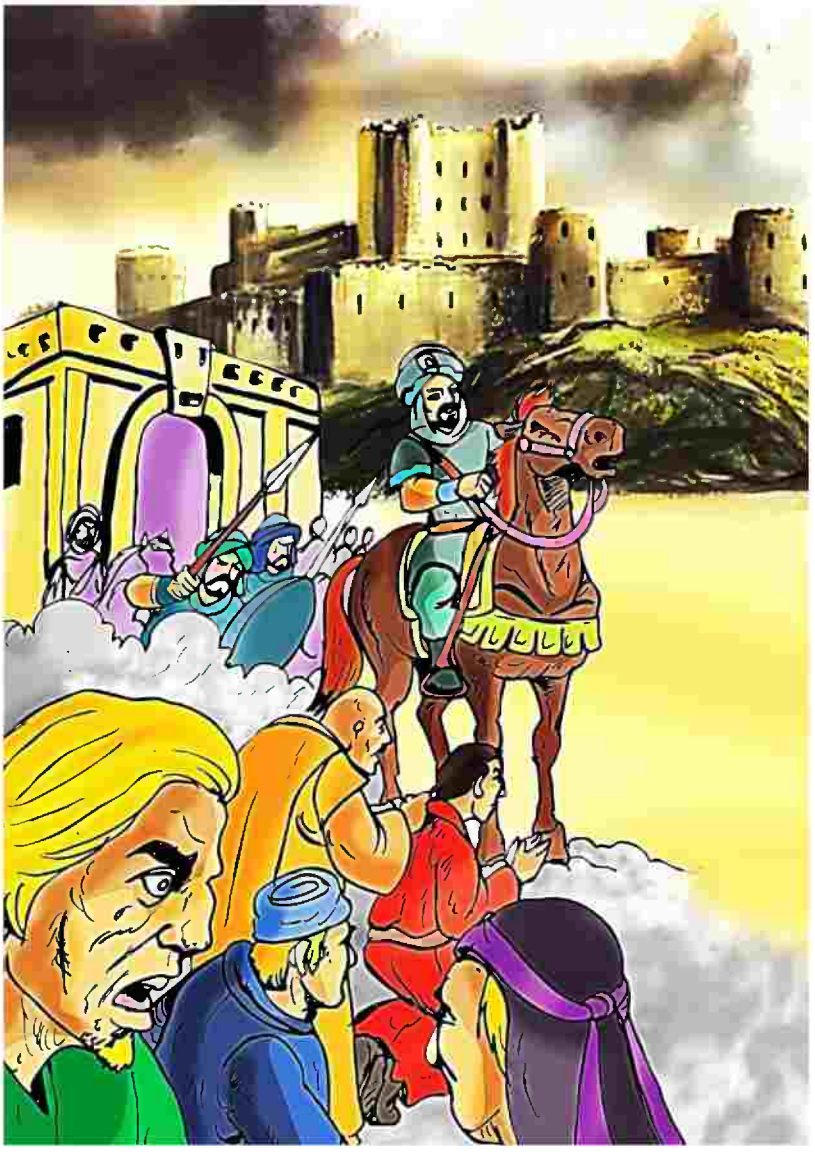

وُلِدَ سَعْدٌ بْنُ مالِكِ بْنُ أهْيَبَ الزُّهَرِيّ (سَعْدٌ بْنُ أبِي وَقَّاصٍ) فِي قَبِيلَةِ قُرَيْشٍ، سَنَةَ ٢٣ قَبْلَ الهِجْرَةِ، أُمُّهُ "حَمْنَةُ بِنْتُ سُفْيَانَ بْنِ أُمَيَّةَ"، وَجَدُّهُ عَمُّ السَّيِّدَةِ "آمِنَةَ أُمّ رَسُولِ اللهِ ﷺ". اشْتَغَلَ بصِنَاعَةِ السِّهَامِ، فأتَاحَتْ لَهُ مِهْنَتُهُ الاخْتِلَاطَ بالكَثِيرِ مِنَ البَشَرِ، بمُخْتَلَفِ طَبَقَاتِهِم وأعْمَارِهِم، كَمَا أتَاحَتْ لَهُ أيْضًا مَعْرِفَةَ أخْبَارِ البِلَادِ الَّتِي حَوْلَهُ، مِنَ الحَجِيجِ الَّذِينَ يَأْتُونَ لقَضَاءِ مَنَاسِكِ الحَجِّ والعُمْرَةِ كُلَّ عَامٍ.

حِينَمَا دَعَاهُ أبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ للإسْلَامِ، كَانَ عُمُرُهُ سَبْعَةَ عَشْرَةَ سَنَةً، اسْتَجَابَ مُسْرِعًا للدَّعْوَةِ، مِمَّا أغْضَبَ أُمَّهُ "حَمْنَةُ بِنْتُ سُفْيانَ"، لأنَّهَا مَازَالَتْ عَلَى دِينِ آبَائِهِا. حَاوَلَتْ أنْ تُعِيدَهُ عَنْ دِينِ الإسْلَامِ، لَكِنَّهُ رَفَضَ، فامْتَنَعَتْ عَنِ الطَّعَامِ، عَسَى أنْ يَرِقَّ قَلْبُهُ لحَالِهَا، لَكِنَّ سَعْدَ قَالَ لَهَا:

"تَعْلَمِينَ واللهِ يَا أُمَّاهُ، لَوْ كَانَتْ لَكِ مَائَةُ نَفسٍ فَخَرَجَتْ نَفسًا نَفسًا، مَا تَرَكْتُ دِينِي هَذَا لِشَيْءٍ؛ فَإنِ شِئْتِ فَكُلِي، وإنْ شِئْتِ لَا تَأْكُلِي". أقْسَمَتْ أُمُّهُ ألَّا تَأْكُلَ أوْ تَشْرَبَ، وألَّا تُكَلِّمَهُ أبَدًا حَتَّى يَعُودَ إلَى دِينِ آبَائِهَا.

وهُنَا أنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىَ: "وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا، وصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا، واتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أنَابَ إِلَيَّ، ثُمَّ إليَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ".

ومُنْذُ أنْ دَخَلَ الإسْلَامُ قَلْبَ سَعْدٍ، أصْبَحَ شُغْلَهُ الشَّاغِلُ إعْلَاءَ كَلِمَةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ فِي الأرْضِ، فوَهَبَ نَفْسَهُ وكُلَّ مَا يَرْبَحُ لنُصْرَةِ دِينِ اللهِ.

حُبُّهُ للجِهَادِ

غَزْوَةِ بُواطٍ، وغَزْوَةِ أُحُدٍ، وأَسْنَدَ إلَيْهِ أعَمَالًا أُخْرَىَ، مِنْهَا مُهِمَّةَ الاسْتِطْلَاعِ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أبِي طَالِبٍ، والزُّبِيْرِ بْنِ العَوَّامِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وكَانَ مِنْ شُهُودِ صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ وأَحَدَ السِّتَّةِ الَّذِينَ اخْتَصَّهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالمَشُورَةِ. حَتَّىَ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَتَبَاهَىَ بِهِ ويقُولُ: "هَذَا خَالِي، فَلْيُرِنِي كُلُّ امْرِئٍ خَالَهُ".

وكَانَ لسَعْدٍ شَرَفٌ كَبِيرٌ يَتَبَاهَىَ بِهِ هُوَ الأخَرُ، فَهُوَ

الوَحِيدُ الَّذِي جَمَعَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَبَوَيْهِ يَوْمَ أُحُدٍ، وقَالَ لَهُ "ارْمِ سَعْدُ، فَدَاكَ أَبِي وأُمِّي". ودَعَا لَهُ، وقَالَ "اللَّهُمَّ سَدِّدْ رَمْيَتَهُ، واجْعَلْهُ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ"، فَكَانَ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ، وأَوَّلَ مَنْ رَمَى سَهمًا فِي سَبِيلِ اللهِ.

سَعْدٌ مِنَ العَشْرَةِ المُبَشَّرِينَ بالجَنَّةِ.

ذَاتَ يَوْمٍ، كَانَ النَّبِيُّ ﷺ جَالِسًا بَيْنَ أَصْحَابِهِ، فنَظَرَ إِلَى الأُفُقِ لَحْظَةً، ثُمَّ قَالَ: "يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ". فأَخَذَ الصَّحَابَةُ يَلْتَفِتُونَ حَوْلَهُم فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ، يتَطَلَّعُونَ هَذَا السَّعِيدَ الَّذِي بُشِّرَ بالجَنَّةِ، فإِذَا بِهِ سَعْدُ.

اقْتَرَبَ أَحَدُ الصَّحَابَةِ مِنْ سَعْدٍ وسَأَلَهُ: "قُلْ لِي مَاذَا تفْعَلُ لِكَيْ تَنَالَ هَذِهِ البِشَارَةَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟" فقَالَ سَعْدُ: "لَا أَعْمَلُ إِلَّا مَا تَعْمَلُونَهُ مِنَ العِبادَاتِ، فَأَنَا أَصُومُ وأُصَلِّي وأَغُضُّ بَصَرِي، غَيْرَ أَنِّي لَا أَحْمِلُ لأَحَدٍ مِنَ المُسْلِمِينَ ضِغْنًا ولَا حِقْدًا ولَا أَبْغِي لَهُم سُوءًا".

حُبُّهُ لرَسُول اللّهِ ﷺ

برَغْمِ هِجْرَة النَّبِي ﷺ إلَى المَدِينَةِ، مَازَالَ المُشْرِكُونَ يُطَارِدُونَهُ، وكَذِلِكَ اليَهُودُ، يُرِيدُونَ قَتْلَهُ، ولِذَلِكَ تَتَنَاوَبُ الصَّحَابَةُ حِرَاسَتَهُ ﷺ. وذَاتَ لَيْلَةٍ، تَأَخَّرَ الحَارِسُ عَنِ المَجِيءِ، فَشَعَرَ النَّبِيُّ ﷺ بقَلَقٍ، فسَمِعَتْهُ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ وهُوَ يَقُولُ: "لَيْتَ رَجُلًا مِنْ أصْحَابِي يَحْرُسُنِي اللَّيْلَةَ"، فَإذَا بِصَوْتِ سِلَاحٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ: "مَنْ بالبَابِ"؟. فَرَدَّ مَنْ بالبَابِ وقَالَ: "أنَا سَعْدٌ، جِئْتُ لأحْرُسَكَ، فنَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ .

قائد فذ

أرَادَ أمِيرُ المُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ أنْ يَقُودَ الجَيْشَ بنَفْسِهِ، وذَلِكَ حِينَ جَاءَتْهُ الأخْبَارُ مِنْ أرْضِ القَادِسِيَّةِ بتَفَوُّقِ الفُرْسِ عَلَى المُسْلِمِينَ, ولَكِنَّ بَعْضَ الصَّحَابَةِ نَصَحُوا عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ أنْ يُسْنِدَ إمَارَةَ الجَيْشِ إلَى سَعْدٍ بْنِ أبِي وَقَّاصٍ، ففَعَلَ عُمَرُ.

وهَكَذَا تَوَلَّى سَعْدٌ قِيادَةَ جَيْشِ المُسْلِمِينَ فِي أصْعَبِ

مَرَاحِلِ مَعْرَكَةِ القَادِسِيَّةِ، فِي بِلَادِ فَارِسٍ والعِرَاقِ، فأثْبَتَ أنَّهُ قَائِدٌ مُحَنَّكٌ صَائِبٌ فِي قَرَارَاتِهِ، وذُو عَقْلِيَّةٍ حَرْبِيَّةٍ فَذَةٍ، حَيْثُ ظَهَرَتْ عَبْقَرِيَتُهُ فِي اخْتِيَارِهِ مَكَانَ المَعْرَكَةِ، بَيْنَ حَاجِزَيْنِ جُغْرَافِيَيْنِ (الخَنْدَقُ والعَتِيقُ) لِحِمَايَةِ قُوَّاتِهِ، مُحَاصِرًا الفُرْسِ بَيْنَ المُسْلِمِينَ ونَهْرِ الفُرَاتِ، وَاضِعًا قُوَّاتِهِ بالقُرْبِ مِنْ مَوْرِدٍ مَائِيٍّ، بِحَيْثُ يَسْهُلُ عَلَيْهَا الكَرُّ والفَرُّ مَتَى شَاءَتْ.

كَمَا كَانَ تَوْفِيقًا مِنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ أيْضًا، حِينَ اخْتَارَ سَعْدُ مِيقَاتَ بِدْءِ المَعْرَكَةِ فِي النَّهَارِ، بَعْدَ الظُّهْرِ، فِي الوَقْتِ الَّذِي ارْتَفَعَتْ فِيهِ أشِعَّةُ الشَّمْسِ عَنْ عُيُونِ المُجَاهِدِين.

والْتَقَى الجَيْشَانِ، وأَبْلَى المُسْلِمُونَ بَلَاءً حَسَنًا، ثُمَّ حُسِمَتِ المَعْرَكَةُ لصَالِحِ المُسْلِمِينَ، وقَتَلَ "رُسْتُمَ" زَعِيمَ الفُرْسِ، بفَضلِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ وتَوْفِيقِهِ لسَعْد فِي قِيادَةِ الجَيْشِ. ولَيْسَ هَذَا فَحَسْبُ، لَقَدْ قَامَ سَعْدُ بعَمَلٍ خُرَافِيٍّ آخَرَ، فمَهَّدَ الطَّرِيقَ أمَامَ الجَيْشِ لعُبُورِ نَهْرِ دِجْلَةَ، حَتَّى وَصَلَ بِهِم إلَى المَدَائِنِ، واقْتَحَمُوهَا، ودَخَلَ سَعْدٌ إيْوَانُ كِسْرَى، وَصَلَّى هُنَاكَ ثَمَانِيَ رَكَعَاتٍ شُكْرًا للهِ عَزَّ وجَلَّ.

إمَارَةُ العِرَاقِ:

تَوَلَّىَ سَعْدٌ إمَارَةَ العِرَاقِ، ولَكِنَّ أهْلَ العِرَاقِ وَقْتَهَا كَانُوا أهْلَ قَلَقٍ، بِرَغْمِ أنَّهُ كَانَ يُعَمِّرُ فِي الأرْضِ، اشْتَكُوهُ إلَىَ أمِيرِ المُؤْمِنِينَ عُمَر، وقَالُوا "إنَّ سَعْدًا لَا يُحْسِنُ الصَّلَاةَ"، فابْتَسَمَ سَعْدُ، وقَالَ: (واللهِ إنِّي لأُصَلِّي بِهِمُ صَلَاةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أُطِيلُ فِي الرَّكْعَتَيْنِ الأوْلَيَيْنِ وأُقَصِّرُ فَي الأُخْرَيَيْنِ), ورَفَضَ أنْ يَعُودَ إلَىَ وَلَايَةِ العِرَاقِ مَرَّةً أُخْرَىَ.

وَفَاةُ سَعْدِ بْنِ أبِي وَقَّاص:

بَعْدَ حَيَاةٍ حَافِلَةٍ بالانْتِصَارَاتِ، سَكَنَ سَعْدُ فِي قَصْرٍ يَبْعُدُ خَمْسَةَ أمْيَالٍ عَنِ المَدِينَةِ، حَتَّىَ جَاءَتْهُ المَنِيَّةُ عَامَ ٥٥ هِجْرِيَّة، لِيَكُونَ آخِرَ مَنْ مَاتَ مِنَ المُهَاجِرِينَ.